التعليم وأثره فى الفرد والجماعة

(أذيعت فى البرنامج الثقافى لوزارة الشئون)

للأستاذ محمد عطية الابراشى

المفتش العام بوزارة المعارف

التعليم أول الواجبات ، وتعميمه أول الضروريات ، بذلك نادى المصلحون فى كل زمان ومكان ، وكان الأسلام فى مقدمة الأديان التى رفعت من شأن العلم والتعليم ، فقد نزلت أول سورة من الكتاب الكريم حاثة على التعليم والقراءة : " إقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم " .

وقد عرفت الأمم قديما وحديثا ما للتعليم من خطر فى الحياة ، فأنفقت على نشره بسخاء وكرم ، واليوم تتمخض الحرب الحالية عما للعلم من قوة عظيمة فى السلم والحرب ، فرأينا ساسة الأمم الظافرة وزعماءها يرفعون صوتهم عاليا ، بضرورة الاستزادة من منابع التعليم ، فأخذت من الآن تعمل على مضاعفة اعتماداته ، وتحسين حال رجاله ، لذلك لم يكن عجيبا أن تحيا الشعوب بالتعليم ، وتستيقظ من سباتها ، وتنتبه من غفلتها ، ولقد دافع " بستالوتزى " عن تعليم الشعب فى سويسرة دفاعا حارا ، سطره له التاريخ فى صفحات خالدة ، فكان له ذكر حسن فى حياته وبعد مماته ، لا فى سويسرة فحسب ، بل فى العالم كله ، وسويسرة التى تنعم اليوم بحضارة زاهية ، ومدنية راقية ، إنما هى أثر جميل من آثار ذلك المربى العظيم .

ولما هزم نابليون " بروسيا " فى موقعة " جينا " وحطم قوتها لم يرفع تلك الأمة المهزومة من حضيض الذل والانكسار إلا مدارس الشعب وتعميم التعليم ، حتى لقد قال (بسمارك) السياسى الألمانى العظيم بعد الحرب السبعينية : " لقد غلبنا جارتنا بمعلم المدرسة " .

أى والله ، معلم المدرسة ، فهو حامل لواء الثقافة والتعليم ، ويعتقد اللورد ماكولى — وهو أديب وقاض انجليزى من القرن التاسع عشر — أنه قبل تعميم التعليم " باسكوتلندة " كان الشقاء كثيرا ، والجهل سائدا ، والكسل عاما ، والأخلال بالقانون منتشرا ، وكان المجرمون يعيثون بالأمن ، ويهددون حياة الناس فى كل وقت ، فكان اسم " اسكوتلندة " بعد معرة وعيبا ، وكان اذا ذكر كرهه الناس ، وقابلوه باحتقار واستهزاء ، ولكن بعد أن

نفذ قانون التعليم العام ، وبدأ الأميون يتعلمون ، وأخذ الأطفال الذين بلغوا سن التعليم يذهبون جميعا الى المدارس ، أخذ شأن " اسكوتلندة " يسمو ويرتفع ، وأخذ الاسكتلنديون يكبرون فى أعين الأمم ، لرقيهم فى الأخلاق والآداب والتفكير ، بفضل التعليم .

هذا ولا يزال الهواء فى «اسكوتلندة» باردا كما كان ، ولا تزال الصخور الاسكوتلندية عارية جرداء . كما عرفها الناس من قبل ، ولا تزال مناظرها الطبيعية كما كانت فى غابر الأزمان ، ولكن ماذا حدث يا ترى ؟! الذى حدث أن الشعب قد تغير ، تغير بالتعليم حتى أضحى أعظم شعب فى العالم فى الذكاء والمثابرة ، وفى الجلد والخشونة والاقتصاد والصناعة ، والآن فقط اعترف العالم بفضلهم ، وعرفت فضائلهم ، فعلى أكتاف هذا الشعب المكافح الصبور بنيت أعظم امبراطورية فى العالم ، عقد لها لواء النصر فى حربين ، لم يعرف التاريخ مثلهما ، وفى القرن التاسع عشر كان الحكام المستبدون فى أوروبا وبخاصة روسيا — يخافون دائما تعليم سواد الشعب ، وكانوا يعتقدون أن العلم كالملح يكون مصلحا إذا أخذ منه مقدار ضئيل ، ويكون مفسدا إذا أخذ منه مقدار كبير ، كان العلم مادة سامة فى رأى هؤلاء المستبدين .

ومن كلماتهم المأثورة : « علم الفقراء اليوم وغدا سيكونون ضدك » .

أما اليوم فقد برهنت التجربة ، وأثبت التاريخ فساد هذا الوهم ، وشعر العالم بأن التعليم هو خير وسيلة للنهوض بالعامة ورفع مستواهم ، فبالتعليم يعرفون كيف يسيرون فى الطريق المستقيم ، ويحكمون عقولهم فيما لهم وما عليهم ، ويميزون بين الحسن والقبيح ، والغث والسمين ، أما الجاهل فكثير الخطأ ، بعيد عن الجادة ومهيع الصواب ، وهو عرضة لكل من يؤثر فيه ، لأنه لا علم له ، ومن لا علم له لا عقل له يسترشد به ، فهو كالريح يميل حيث تميل ، وكالريشة فى مهب الهواء ، وكم أضر الجهلاء بأنفسهم ، ووسموا بلادهم بميسم العار .

وفى سنة ١٩٢٠ رأت الحكومة الإنجليزية أنها مثقلة بفادح الديون بعد الحرب ، ففكرت فى اقتصاد بضعة ملايين من الجنيهات ، فلم تجد سبيلا لتحقيق غايتها إلا إنقاص ميزانية التربية والتعليم فقوبلت بعاصفة شديدة من الاحتجاج والمعارضة من جميع المفكرين وأفراد الشعب ، وكان الجواب الحاسم " اقتصدوا فى كل شىء ، ومن كل شىء ، إلا من مالية التعليم " .

ومن هذا يتبين مقدار ثقة الشعب الانجليزى بالتعليم وأثره ، ومبلغ استعداده لتقديم أية تضحية فى سبيله .

وهنا يحق لنا أن نسأل : ما النتيجة التي حصلت عليها تلك الأمة من تعميم التعليم ؟ وإن نظرة واحدة إلى عدد المجرمين قبل تعميم التعليم وبعده يتبين بوضوح أثر التربية والتعليم في نفسية هذا الشعب، في أفراده وجماعاته، وينهض دليلا على ذلك ما قاله (فكتور هوجو) : "من فتح مدرسة فقد أغلق سجنا" تلك الكلمة التي يجب أن تكتب بحروف من نور على باب كل مدرسة ، وفي كل ميدان عام .

ولا غرابة فتى الجائزة يلتقط الأذكياء كالزهرة ويوضعون في المكان اللائق بهم وتفتح السبل في وجوههم ، كي تنتفع الأمة بذكائهم ، يتعلمون التعليم الابتدائي بالمجان ، ولا بد أن يحصلوا على جائزة للمجانية في المدارس الثانوية ، وبعد أن ينتهوا من التعليم الثانوي قد يحصلون على جائزة للتعليم بالجامعة، وهذه الجوائز ميسرة لكل من أظهر ذكاء ، ولأضرب لكم مثلا باللورد « بركنهد » الذي كان من أكبر الوزراء العاملين في وزارة المحافظين في سنة ١٩٢٩ ، فقد نشأ بين أحضان أسرة فقيرة ، وحدث أن مات أبوه وهو طفل ، فعنيت والدته بتربيته ، وتربية أخوته بقدر ما استطاعت . وقد عرفت ما فطر عليه ابنها من ذكاء متوقد ، فعولت على أن تصل به إلى حيث يظفر بمجانية التعليم في جامعة (أكسفورد) ، وكان لها ما أرادت ، فقد نجح في امتحان الجامعة ، ونال الجائزة الأولى التي يتوقف عليها مصيره ومستقبله ، ولم يكن معه إذ ذاك من النقود ما يكفي رجوعه إلى بلدته ، بدأ يتعلم في الجامعة مع أبناء الطبقة الخاصة من الأمة وظهرت عليه مخايل الذكاء ، وعلامات النبوغ والمقدرة الخطابية في ذلاقة لسانه، وبراعة منطقه وقوة حجته ، وفي حفل انتخابي سمعه الراحل " يوسف تشمبرلن " فأعجب به كل الإعجاب ، وسأله أن يقابله بعد الانتهاء من حياته الجامعية فقابله بعد سنتين ، وعندئذ عرض عليه الالتحاق بحزب المحافظين ، فتفعل ، وثابر حتى وصل بعلمه وعمله إلى الدرجة التي كان يتمناها .

فلو لم يعط (اللورد بركنهد) فرصة التعليم لقبر ذكاؤه حيا ، وما انتفعت بلاده بذكائه وعبقريته ، فالتعليم الحق هو الوسيلة الوحيدة لاغلاق السجون، وهو الطريق الوحيد لرقي الفرد والجماعة، بل هو سر عظمة الأمم، ومظهر سيادتها وقوتها ، وقد خرج النبي صلوات الله عليه فيما يخرج له كل يوم، فرأى مجلسين : احدهما فيه قوم يدعون الله عز وجل ويرغبون إليه ، وفي الثاني جماعة يعلمون الناس فقال : " أما هؤلاء فيسألون الله إن شاء أعطاهم وان شاء منعهم ، وأما هؤلاء فيعلمون الناس ، وإنما بعثت معلما" . ثم عدل إليهم وجلس معهم ، وبذلك ضرب الرسول الكريم خير الأمثال في تشجيع التربية والتعليم ، والحث عليهما ، والاعتراف بفضل مهنة التعليم ، وقد علم الله نبيه دعاء يدعوه به فقال " وقل رب زدني علما " ، وكان الرسول صلوات الله عليه يقول " الناس رجلان

عالم ومتعلم ولا خير فى سواهما" . وقال: " من أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أرادهما معا فعليه بالعلم" كما قال "كونوا للعلم دعاة ولا تكونوا له رواة" وفى هذا حث من النبى على تدبر العلم وفهمه ، بمعرفة وجه المنفعة فيه، وتطبيقها على المصلحة العامة والخاصة .

وقال عبدالملك بن مروان لبنيه " يا بنى تعلموا العلم ، فان كنتم سادة فقتم ، ان كنتم وسطا سدتم، وان كنتم سوقة عشتم"، وقال مصعب بن الزبير لابنه "تعلم العلم فان لم يكن لك جمال كان لك جمالا ، وان لم يكن لك مال كان لك مالا ، فالعلم زينة من لا زينة له ، ومال من لا مال له" ، وقال (شكسبير) " العلم هو الجناح الذى نستطيع أن نطير به الى السماء " وقد صرح أحد الكتاب الفرنسيين بقوله : " إن العالم سائر بنجاح نحو التفكير فى الإنسانية ومن المحال أن ترقى أمة من الأمم إلا بتعميم التعليم ، فالمدنية والحضارة والتقدم فى العلم ، والإبداع فى الاختراع من كل ما نراه بأعيننا فى الأمم الراقية نتيجة التربية العامة ، والتعليم المنتشر بين جميع الطبقات" .

وقال (جورج واشنطون) محرر أمريكا : "العلم هو السبيل الوحيد ، والأساس المتين لسعادة الجمهور" ولقد نقشت هذه العبارة الثمينة التى فاه بها (واشنطون) فى خطبة الوداع على قلب كل أمريكى وهى : "إن أول أمر عام هو أن تنهضوا بالمدارس لنشر التعليم التام"، وقد كتب (توماس جيفرسون) الرئيس الثالث للولايات المتحدة بأمريكا "إن التعليم الذى سيعم كل طبقة من أبناء شعبنا من أدناهم إلى أعلاهم سيكون أول شئ يتعلق بالجمهور الذى أحبه ، وأفكر فيه ، إن الشعب الذى ينتظر أن يكون حرا جاهلا فى وقت واحد شعب ينتظر ما لم يحدث ولن يحدث ، فحيثما تكون الصحافة حرة، ويكن كل إنسان قادرا على القراءة والكتابة تكن الديمقراطية آمنة" .

فبالتربية يستطيع الانسان أن يعرف ما يجب عليه نحو نفسه وغيره ، وبها ترقى الأفراد ، وبرقى الأفراد يرقى المجتمع ، وترقى الأمة .

ولقد قاسى (هوريس مان ، ومارى ليون ، وفرنسيس باركر) من المربين الأمريكيين كثيرا فى سبيل تعميم التعليم بالولايات المتحدة الأمريكية ، ومدارس العامة بها اليوم هى المناهل العذبة التى يرتشف منها كل طفل ما هو فى حاجة إليه من العلم ، وفيها يتعلم الأطفال جميعا الحب والإخلاص لبلادهم ، فبين جدرانها تتحد الميول والنزعات وتسمو النفوس والأغراض ، وتقوم العادات والأخلاق ، وقد تعلم فى هـذه المدارس كثير من أطفال اسكوتلندة وويلز وانجلترة وأرلندة وفرنسا وألمانيا وروسيا وسورية ، ممن نزحوا الى تلك الأرض الجديدة ، فجعلتهم مدارس الشعب جميعا أمريكيين ، وغرست فى نفوسهم حب

وطنهم الثانى ، الذى اتخذوه مستقرا ومقاما ، فهم الآن يعدون أنفسهم أمريكيين ، لهم ما للأمريكيين وعليهم ما عليهم ، والفضل فى ذلك كله الى مدارس الشعب ، التى يتلاقى فيها كل طفل وطفلة من كل جنسية ودين وطبقة ، على أرض واحدة ، وتحت سقف واحد من غير تفريق أو تمييز .

وللمدارس العامة فى أمريكا مكان كبير فى قلوب أفراد الشعب ، والشعب ينظر اليها نظرة تقديس وإجلال وإكبار ، ويعتقد الأمريكيون جميعا أن بالتربية والتعليم تستطيع الولايات المتحدة أن تقود العالم فى الأفكار والاختراعات والصناعات ، لذلك نجدهم يدفعون ضرائب التعليم بقلوب راضية ، ونفوس مطمئنة ، ولا يعدونها حملا ثقيلا على أكتافهم بل يعدونها واجبا مقدسا نحو أمتهم ، التى يفخرون بالانتساب اليها ، والعمل على إسعادها ورقيها ، ولقد كشفت الحوادث التى انجلت عنها هذه الحرب أن الأمريكيين حقا قد ملكوا زمام العالم بهذا الاختراع الجديد ، الذى مكنهم من استخدام الطاقة الذرية .

وفى الولايات المتحدة لا ينظر دافعو الضرائب اليها نظرتهم الى صدقة من الصدقات ، بل يعدونها ضرورية لرقى الأمة وسعادة المجتمع ، ويثقون بأن سعادة الشعب تتوقف على ذكائه ، وتربيته تربية حقة ، ويعتقدون أن الانفاق على تعليمه أفضل الوسائل للغنى والثروة ، فالعمل المقترن بالجهل ليس بالرخيص ، بل هو غال دائما ، فكثيرا ما يتلف العامل الجاهل الآلة التى فى يده لجهله ، وهو فى الدوام فى حاجة الى من يراقبه ويلاحظه ، ويبين له طريق العمل ، وهو فى الغالب لا ذمة له ولا ضمير ، والجاهل لا يعرف كيف يستعمل أوقات فراغه فى كسب أمور نافعة . من إصلاح نفس ، أو جلب مسرة ، أو قراءة مفيدة ، أو استماع محاضرات أو مناظرات ، فيعتاد السكر والميسر ، والعنف والقسوة ، والاخلال بالنظام ، والثورة على القانون ، حتى يصبح خطرا عظيما وفسادا كبيرا .

أما العمل الذى يصحبه العلم والذكاء وحسن التصرف فقد أوجد فى أمريكا المصانع المختلفة ، وجعلها تنتفع بغاياتها الواسعة ، وبراريها الشاسعة ، وأوجد لها فرصا كبيرة للحصول على الأموال وتثميرها ، حتى أصبحت الولايات المتحدة أغنى أمم العالم ثروة ، وأعظمها علما وصناعة ، وأرقاها زراعة وتجارة .

وإذا نحن ذهبنا مرة أخرى نعدد فوائد العلم والتعليم وجدنا أنفسنا أمام قضية أدلة الاقناع فيها واضحة ، فمقدماتها من البدهيات ونتائجها أمور مسلم بها ، والله تعالى يقول : "هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون" ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يشجع على التعليم عملا وقولا ، فمن ذلك أنه كان يطلق سراح أسرى الحروب إذا علموا بعض المسلمين القراءة والكتابة ، وقال "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة" ، وقال الغزالى "من أصاب علما فاستفاده وأفاده كان كالشمس تضيء لنفسها ولغيرها وهى مضيئة" .

وقال بعض الحكماء "اطلبوا العلم من المهد الى اللحد" ، وقال افلاطون "التعليم أفضل شئ يملكه أفضل الرجال" .

وقال (مونتين) "الجهل أس الرذائل" ، وقال (فولر) "التعليم خير منحة يمكن أن تمنح" وقال (جيمس ماديسون) الأمريكى "إن حكومة تكسب حب الشعب من غير تعليم مقبول عند الجمهور لا يكون عملها إلا مقدمة لرواية هزلية أو مأساة أو مقدمة لكليتهما" .

وقد كان من نتائج الحرب الكبرى الماضية أن تنبهت الأمم فى أمريكا وأوروبا إلى شعور جديد نحو التعليم ، فلما وضعت تلك الحرب أوزارها أخذت انجلترا تفكر فى الوسائل التى بها تنهض بالتعليم ، فبعد أن كان التعليم إجباريا الى الرابعة عشر ، مدت مدة التعليم الى الثامنة عشرة ، ورحبت البلاد بقانون التعليم فى سنة ١٩١٨ الذى وضع لرفع مستوى الجيل الجديد فى التربية والتعليم ، وقد تحملت هذه الأمة العظيمة فى سبيل ذلك المشروع عبئا ماليا ثقيلا أكثر بكثير من العبء الذى كانت تتحمله فى سبيل التعليم قبل تلك الحرب الماضية ، فوزارة المالية الانجليزية تدفع إعانة للتعليم أكثر من ثلاثة أضعاف الأعانة التى كانت تدفعها قبل سنة ١٩١٤ . وذلك لأن التعليم فى انجلترة أمر يهم الشعب والحكومة والجهات المحلية كل الاهتمام ، لأن كل فرد هناك يشعر بفائدة التعليم وأثره ، ولأمر ما قال الفيلسوف (أراسمس) "أعطنى إدارة التعليم وأنا أتعهد لك بقلب العالم" .

وما كادت هذه الحرب العالمية الثانية تتوقف فى أوروبا والشرق حتى أخذت الهمم والجهود الانجليزية فى تلك البلاد العظيمة تتجه اتجاها جديدا آخر نحو رفع مستوى التعليم

كأن الفرد العادى فى انجلترا لم يتعلم ، كلا ! ولكنها أمة ليس لغايتها فى التعليم نهاية . وكثيراً ما نسمع اليوم فى بلادنا تندداً مراً عن انتشار المستنقعات والأمراض المتوطنة ، وكثرة السائلين والعجزة ، وفاقدى البصر ، وعن فساد الأخلاق ، وكثرة الجرائم والحوادث ؛ وليس عندى من علاج إلا أن نعلم الأمة تعليما صحيحا ، فبذلك يرتفع المستوى الصحى والاجتماعى والخلق ، وتتحقق تلك الاصلاحات عفوا بلا تعب ، فاذا أردنا الخير للأمة مخلصين جعلنا التعليم عاما شاملا فقراءها وأغنياءها ، ثم وجهنا عنايتنا بخاصة الى الفقراء ، لأنهم العمود الفقرى الذى تعتمد عليه الأمة ، يجب أن نعلمهم إذا أردنا أن تنهض البلاد ، وأن تتخذ مكانها بين أفراد الرعيل الأول من قافلة الأمم الحية ، يجب أن نعلم الأمة حتى يقل عدد الفقراء ولا نسمح للأطفال بالعمل إلا بعد التعليم ، يجب أن نعلمهم حتى نعدهم لحياة سعيدة وعيش كريم ، يجب أن نعلمهم التعليم النظرى أولا ثم الصناعى ثانيا ، وليكن شعارنا جميعا : علموا الفقراء واليتامى والمساكين ، علموا الأمة كلها ، لا تغلقوا المدارس فى وجه أى راغب فى التعليم ، هيئوا الفرصة لكل من يتعلم ، أغرسوا حب التعليم فى نفس كل طفل أو طفلة ما

محمد عطية الابراشى

المفتش العام بوزارة المعارف

قال اعرابى : تعلموا الأدب فانه زيادة فى الفضل ، ودليل على العقل ، وصاحب فى الغربة ، وأنيس فى الوحدة ، وجمال فى المحافل ، وسبب إلى درك الحاجة .